شعر الحلاج* بين الرؤية الصوفية والخطاب الشعري

أ.د/ أنس الفقي*

anasatia@hotmail.com

ملخص:

جاءت هذه الدِّراسة لتمثِّل محاولةً لاستكناه أغوار الرؤية الصوفيَّة من خلال الخطاب الشِّعري في شعر الحسين بن منصور الحلاج، الشاعر الصوفي الكبير، الذي يمثِّل جيلَ الرُّواد من الصوفيّة، صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين، والذي قُتِل ضحيّة مبادئه، ودار حولَه جدلٌ كبيرٌ في الشَّرق والغرب.

وطبيعة شعر الحلاج كانت سببًا مباشرًا في اختيار عنوان هذا البحث، فشعر الحلاج لا يخرج في مجمله عن ثلاثة مناحٍ:

المنحى الأول: طرح الرؤية النَّظرية من خلال تجربة شعورية مصاحبة.

المنحى الثاني: طرح الرؤية النظرية بطريقة مباشرة تختفي فيها روح الشاعر أو تكاد.

المنحى الثالث: وصف الحالة الشعورية التي يعيشها دون تعمُّد طرح رؤية معينة. وهذا المنحى الأخير يتضمن شعر الحب والعشق الإلهي وما يصاحب ذلك من أحوال.

* أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية، عميد المتطلبات الجامعية، جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

وعلى هذا تم تقسيم البحث **إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول** وهو الرؤيَّة النظريَّة في شعر الحلاج، وهو القسم الأكبر من شعره؛ حيث يتناول المنحيين الأول والثاني اللذين أشرنا إليهما، أي الشعر الذي يتبنى فيه الحلاج رؤية نظرية أو دعوة فكرية يريد أن يوصلها للناس، وهذا الفكر أو هذه الرؤية ليست سوى الرؤية الصوفيَّة للحياة والكون والتي سنعرض لقضاياها البارزة في شعر الحلاج، وأهم هذه القضايا: موقفه من الشريعة، ونظرته إلى الإنسان روحًا وجسدًا، ووحدة الأديان، وسطوة الأقدار ووجوب التَّسليم، وحيْرة العقل، وقضية المعرفة والعلم، والصحبة في طريق التَّصوف. ثم نعرض في هذا القسم إلى جانبين متَّصلين بهذه الرؤية وهما: شطحات الحلاج، ومنظوماته الملغزة.

والقسم الثاني من البحث يتناول المنحى الثالث، وهو الشِّعر الصوفي الوجداني الذي صاغه تعبيرًا عن حالته الصوفيّة من عشق وشوق وتوحُّد وتواصل، أو عن شكوى وألم وحزن. أي إنه الشّعر الذي يعبِّر عن تجربته الصُّوفية الخالصة دون أن يعمد فيه إلى طرح رؤية أو توضيح فكرة أو نشر دعوة نظرية معينة.

أما القسم الثالث فهو يتناول الخصائص الأسلوبية لشعر الحلاج عامة من حيث الموسيقى، والمعجم الشعري، والتراكيب، والصورة الفنية، بما يساعد في تكوين صورة متكاملة عن هذا النتاج الشعري الصوفي الرائد الذي وصلنا عن الحلاج.

بقي أن نشير إلى أن شعر الحلاج قد ورد غالبًا في سياق أخبار نثرية تمثِّل مدخلًا أو إطارًا فكريًّا يمكن أن يفيد في توجيه النَّص، ولذلك رأينا أنه من

المناسب الاستعانة ببعض هذه الأخبار عند تناولنا للمقطعات الشعرية المتصلة بها.

أما عن نتائج البحث فتتلخص في النقاط التالية:

- شعر الحلاج في التَّصوف يمثِّل بكارة التجربة الشعرية الصوفية في التراث العربي، فهو لم يصل –في مجمله– إلى مرحلة النُّضج الفني، هذا بالإضافة إلى أن بعض مقطعاته جاءت ضمن مواقف ارتجالية على نحو ما ورد بأخباره، ولذلك لا نجد فيه مزيدًا من التوظيف الفني للرمز الصوفي، مثلما فعل ابن الفارض وابن عربي وغيرهما من كبار شعراء الصوفية الذين جاءوا بعده. ولعل عدم التوفيق في توظيف الرمز الصوفي كان السبب الرئيسي وراء تلك الشطحات المباشرة التي صدمت رجال الشريعة.

- يغلب على شعر الحلاج الجانب النَّظري الفكري، وقد أثَّر ذلك في أسلوب الخطاب الشعري؛ فبدا الشاعر في كثير من مقطعاته وكأنه شارحُ نظرية أو موضح فكرة.

- تُعدُّ الرؤية النظرية عند الحلاج المنطلق الأساسي لشعره بصفة عامة، وتتمثل في نظرته العليا للإنسان الذي يحمل بداخله سرّ العبودية والألوهية، فهو –في نظر الشاعر– يملك إرادة لا حدود لها يمكن أن توصله إلى الحقيقة المطلقة، كما تتمثل في نظرته غير التقليدية إلى الشريعة؛ حيث جمع بين احترامه لها وتوسُّعه في فهم حقائقها، وقد عبَّر في شعره عن هذا التوسُّع بما

لا تطيقه أفهام عامة الناس وبعض رجال الشريعة، فكانت الشطحات، وكان الاتهام، وكان القتل.

- على الرغم من طغيان الجانب النَّظري في شعره عامة إلا أن للحلاج بعض القصائد والمقطعات التي عبر فيها عن تجربته الصوفية الخالصة، وبخاصة تلك التي تتعلق بالعشق الإلهي وما يصاحبه من معانٍ وجدانية.

- نال الجانب الموسيقي حظًّا وافرًا في شعر الحلاج، فقد جاءت جلُّ قوافيه من النوع المتواتر المردف، الذي يناسب الغناء والإنشاد، وبالتالي يساعد على انتشار شعره بين الناس.

- ظاهرة التكرار في شعر الحلاج من الظواهر اللافتة، وقد وضّح البحث أن التجربة الصوفية بشقيها: النَّظري والوجداني كانت سببًا مباشرًا في هذه الظاهرة.

- إيثار الحلاج للمقطعات الصغيرة والثنائيات في شعره يدفع إلى القول بتأثره بنمط من الشعر الفارسي، وهو ما يُسمى "بالدوبيت" أو المثنوي، وإن لم ينظم على وزنه، بل إنه نظَّم هذه الثنائيات على الأوزان العربية المعهودة، ومع هذا، فإن ذلك يُعدُّ بداية تأثر ظاهري بالشكل العام. ومن الجدير بالذكر أن هذا التأثر قد تطور في العصور اللاحقة؛ حيث كتب الشعراء هذه الثنائيات باللغة العربية وبالوزن الفارسي.

- حرص الحلاج في شعره على الاقتراب من أذواق العامة، ومن مظاهر ذلك: استعماله بعض العبارات المتداولة، والمصطلحات اللافتة، وأحيانًا اللغز المصطنع بتوظيف حروف الهجاء.

- للتصوير الفني عند الحلاج دور ملحوظ في أداء الرسالة الشعرية، وعلى الرغم مما أشرنا إليه سابقًا من عدم بلوغ شعره الصوفي عامة مرحلة النضج الفني، إلا أن أداءه التصويري قد يبلغ أحيانًا مستوى راقيًا بحيث يصل إلى حد الاستشهاد البلاغي بصوره المتقنة التي تجري مجرى المثل أو الحكمة كقوله المشهور:

ألقاهُ في اليمِّ مَكْتوفًا وقالَ لهُ إيّاكَ إيّاكَ أنْ تَبْتَلَّ بالماءِ

- وأخيرًا فإن قِلّة ما وصلنا من شعر الحلاج، والتضارب القائم حول الشِّعر الذي نسب إليه وإلى غيره في كتب التراجم، يدفع الباحث إلى التوصية بتكثيف البحث وإعادة النظر في هذا الشعر (المنسوب إليه وإلى غيره)، ومحاولة التحقق منه، لتكتمل الصورة، وتتحقق الفائدة.

<u>الكلمات المفتاحية</u>: الحلاج – شعر الحلاج – شطحات الحلاج – منظومات الحلاج الملغزة – الشعر الصوفي.

* الحسين بن منصور الحلاج أبو عبدالله، ويقال: أبو مغيث، من أهل بيضاء فارس، نشأ بواسط والعراق، وصحب سهل بن عبدالله التستري، وصحب الجنيد وغيره ببغداد، وكان كثير الترحال والأسفار والمجاهدة، ومن الغارقين في حقائق التصوف، وله شطحات مشهورة ألبت عليه العلماء والفقهاء في عصره، وكانت سببًا في قتله، وقد كتب الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه "مشكاة الأنوار" فصلًا طويلًا في حاله، واعتذر عن الألفاظ التي كانت تصدر عنه وحملها كلها على محاملَ حسنة، وقال "هذا من فرط وشدة الوجد". ذكر ابن خلكان أنه قُتل سنة تسع وثلاثمائة (309هـ).